أيها الحكام العرب، هل تدركون؟

هل تدركون، أيها الحكام العرب، أن المؤامرة لا تقتصر على فلسطين، ولا على العراق، بل تستهدف المصير العربي، مصيركم، مصير الأرائك التي تتربّعون فوقها؟

الهجمة على العراق ستجعل أميركا، ومعها إسرائيل، في موقع الآمر الناهي بلا منازع في المنطقة العربية بأسرها، فتتحكم بالنفط العربي إنتاجاً وتسويقاً وتسعيراً، وتملي على الشعوب العربية أنماط حكمها وأساليب حياتها وحتى نسق قيمها ومعتقداتها، وتفرض الحل الذي تشاء لقضية العرب في فلسطين. ولما كانت استراتيجيا أميركا هي عينها استراتيجيا إسرائيل، فإن الحل الذي ستمليه أميركا سيكون على قياس المطامع الإسرائيلية من غير الالتفات إلى مطالب العرب أو حقوقهم أو مصالحهم.

إذا تحققت المؤامرة، فستفجعون بتهويد القدس وتنمية المستوطنات اليهودية وتهجير المزيد من اللاجئين إلى خارج الأرض الفلسطينية، وسيغدو توطين اللاجئين في الجوار العربي أمراً واقعاً، وستسيطر إسرائيل على كل الأرض الفلسطينية من البحر إلى النهر. فالأحلام التي كانت تلازم قضية فلسطين ستتبدد، ومعها ثمار نضال طويل حفل بالآلام والتضحيات وغصّ بالدموع والدماء وضجّ بالأحداث والنكبات.

عند ذاك لن تسقط شعرة من رأس عربي إلا بمعرفة أميركا أو بإذنها. ستكون إسرائيل سيدة عليكم. إرادتكم مرهونة. مشيئتكم مسلوبة كرامتكم مهدورة.

فماذا أنتم فاعلون لإحباط المؤامرة؟ إذا كنتم لا تدركون الأخطار المحدقة بالأمة فالمصيبة عظيمة. وإذا كنتم تدركونها ولا تفعلون شيئاً فالمصيبة أعظم.

لا تصدّقوا إن أميركا، في حربها على العراق، إنما تسعى إلى وضع اليد على أسلحة الدمار الشامل. فهناك طرق سلمية لضمان عدم اقتناء العراق أسلحة الدمار الشامل، مع العلم أن ليس ثمة ما يؤكد حقيقة امتلاك العراق أيّا من أسلحة الدمار الشامل. وهناك دول أخرى تملك هذه الاسلحة، فلم تحرّك الدولة العظمى ساكناً في التصدّي لها. ثم بأي حق يُسمح لإسرائيل باقتناء كل أنواع أسلحة الدمار الشامل ولا يسمح بمثل ذلك لأي دولة عربية؟ أين هو العدل في سياسة أولئك الذين قرروا أن يحكموا العالم؟

لا تصدّقوا، أيها الحكام العرب، أن الهدف يقتصر على إنهاء نظام حكم استبدادي يتصدّره صدام حسين واستبداله بحكم ديمقراطي. فمتى كانت الديمقراطية تفرض بقوة السلاح؟ وهل النظام العراقي هو النظام اللاديمقراطي الوحيد في العالم العربي أو في العالم الأرحب؟ فما الذي يمنع استخدام هذه الذريعة لمهاجمة أي قطر عربي آخر مستقبلاً؟

ثم ألا تعتبرون بما جرى في أفغانستان؟ فلقد شنّت الدولة العظمى حرباً شعواء عليها باسم القيم الإنسانية والحضارية، فأوقعت الضحايا وسفكت الدماء بين المدنيين ودمّرت ما دمّرت من مرافق البلاد. فماذا كانت الحصيلة: فوضى مستحكمة واقتتال مستمر وفقر مدقع، ولا حرية ولا ديمقراطية ولا حقوق إنسان.

الهدف هو النفط العربي، وهو إلغاء الإرادة العربية في الصراع العربي ـ الإسرائيلي. وهو فرض الهيمنة على بلاد العرب جميعاً، وهو جعل حكام العرب، وهم اليوم دمى في قبضة الدولة العظمى، في غربة عن شعوبهم داخل أوطانهم.

لا تصدقوا، أيها الحكام العرب، كلام أميركا عن الحرية والعدالة وحقوق الإنسان. فكلها مهدورة في فلسطين على يد إسرائيل برعاية أميركية مباشرة

تتجلى في الدعم الأميركي لإسرائيل بالمال والسلاح والموقف الدبلوماسي والسياسي والإعلامي، وستكون تلك القيم مهدورة في العراق، وستبقى مهدورة في سائر الأقطار العربية ما دام حكامها يسلسون قيادهم للدولة العظمى، يأتمرون بأمرها، يرضخون لمشيئتها، يتهافتون على خطب ودّها، ويتهالكون على أقدامها. واللافت أن الدولة العظمى باتت تمارس التمييز العنصري السافر في مجتمعها ضد كل من هو عربي أو مسلم.

أحداث ١١ ايلول كانت جريمة نكراء في حق الإنسانية. وكم من جريمة ترتكب اليوم في حق الإنسانية باسم تلك الأحداث أو تحت غطائها أو انتقاماً لها.

إذا كنتم تتصورون أن شعوبكم ستغفر لكم، وتهلل أو تصفّق لكم، وتستمر في تحملكم، فأنتم واهمون. فالشعوب تمهل ولا تهمل. إنهم سيهبّون في وجهكم إن عاجلاً أم آجلاً ليثأروا للامبالاتكم وفسادكم وبذخكم وقهركم واستبدادكم. ولات ساعة مندم. تأخذ الدولة العظمى على أنظمتكم لا ديمقراطيتها. لو كانت هناك حرية لما كنتم، ولو كانت هناك ديمقراطية لما بقيتم. لن تغفر لكم شعوبكم استسلامكم لطاغوت الدولة العظمى، أو تخليكم عن فلسطين الذبيحة، أو تواطؤكم ضد العراق والمصير القومي العربي. إذا كنتم تظنّون أن ذلك يحفظ عروشكم فقد أخطأتم الطريق.

ألا تدركون، أيها الحكّام العرب، أن بإمكانكم أن تحبطوا المؤامرة فتنقذوا فلسطين من أطماع الصهيونية، وتحفظوا نفطكم وثروة أمتكم في يدكم، وتصونوا مصير أمتكم في حريتها وكرامتها ووجودها، بكلمة تقولونها اعتراضاً على مكائد الدولة العظمى، ومعها إسرائيل، وبصرخة مدويّة تطلقونها في وجه العدوان المبيّت ضد الأمة ومقدّراتها، وبالوقوف وقفة مسؤولة شجاعة واحدة في جبه غطرسة القوة. ما هو عذركم في عدم التلاقي، في قمة استثنائية، لتوحيد الموقف وتصليبه في مواجهة أعتى التحديات التي تواجه الأمة؟

إن غطرسة القوة التي تتحكم في السياسة الأميركية، والتي تولدت عنها

عقيدة الضربة الوقائية أو الحرب الاستباقية في استراتيجية الولايات المتحدة للأمن القومي، يمكن أن تؤدي بالنظام العالمي إلى شريعة الغاب. فما الذي يمنع أي دولة أخرى، تتمتع بالتفوق العسكري، أن تسلك هذا النهج أيضاً في تصفية حساباتها مع الدول الأضعف؟ أليس هذا ما سارت عليه ألمانيا النازية؟ ما الذي يمنع إسرائيل من التذرع بنظرية الحرب الوقائية أو الاستباقية لضرب أي دولة عربية في أي وقت؟ ماذا يبقى من النظام العالمي، وهل يبقى للأمم المتحدة أي دور؟ أولئك الذين يحملون لواء الديمقراطية بين الأمم، كيف يبررون انفرادهم في القرار دولياً؟ ألا يجدون مكاناً للديمقراطية على الساحة الدولية؟

تفصلنا عن الضربة الأميركية بضعة أشهر. يا حبّذا لو يشهد هذا الفاصل الزمني القصير حشد إمكانات الأمة وخروج الشارع العربي هادراً يعبّر عن إرادته، داعماً للانتفاضة، رافضاً للحرب الوقائية الاستباقية، وشاجباً أي مشاركة عربية فيها مباشرة كانت أم غير مباشرة، حاضّاً المقاومة الفلسطينية على الصمود حتى النصر والعراق على فتح أبوابه مشرعة أمام المفتشين الدوليين وفق القرارات الدولية، ومطالباً حكامه بفتح نافذة على المستقبل الواعد بتعزيز قواعد الحرية وتحصين حقوق الإنسان في وطنه وإطلاق عجلة التطور الديمقراطي في كل أرجاء الوطن العربي.

التغيير قادم لا محالة، إن لم يكن بيدنا فبيد سوانا، فليكن بيدنا. فذلك أجدى وأكرم.

جريدة النهار في ١٥/١٠/٢٠٠٢